With thanks to the Schimmel Family for their generous sponsorship of Covenant & Conversation, dedicated in loving memory of Harry (Chaim) Schimmel.

The translation to Arabic was made possible through the generous funding of The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion.

بِرِيشِيت

هو أوّل نصّ توراتيّ أسبوعي، وبحسب برنامج القراءة الأسبوعية لأسفار التوراة الخمسة فإنه يُقرأ في كافة أنحاء العالم لكل الطوائف اليهودية خلال فترة عيد سِمحاة توراة (أي فرحةُ قراءة التوراة مُجدّدًا والذي يهِلّ بعد انقضاء عيد العُرش اليهودي. وهذا النصّ الأسبوعي يشكل بداية سِفر بِرِيشِيت (أو) من التوراة، ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المَقطع الأوّل (الإصحاح الأوّل) ويَنتَهي بالآية الثامِنة من المقطع السّادِس.

تَحَمُّلُ المَسؤوليّةِ

Translated by The Connecting Hamza NGO

إذا كانت القيادةُ هي الحَلّ، فما هي المشكلة؟ وبعبارةٍ أخرى: ما هي المشكلةُ التي تحاول القيادةُ حلّها؟ وعن هذا السؤال الهامّ، تُجيبنا التوراة بأوضح ما يكون: إنها فشل الإنسان في تحمّل المسؤولية.

ففي بداية سفر التكوين، نتعرّف على قصّتَين أساسيتين؛ الأولى عن آدم وحَفاه/حواء، والثانية عن قاين/قابيل وهِفل/هابيل. وتكشف كلُّ قصّةٍ منهما عن نوعٍ محدّدٍ من هذا الفشل الأخلاقي. نعلمُ من القصة الأولى أن آدم وحَفاه أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها. ونتيجةً لهذه الخطيئة التي اقترفاها، شعرا بالخزي والعار، فحاولا الاختباء، لكنّهما سرعانَ ما اكتشفا أنّه لا يمكن لأحدٍ أن يختبئ من الله عزّ وجلّ. وضمن أحداث القصّة، يَرِدُ في سِفرِ التكوين ابتداءً من الآية التاسعة وانتهاءً بالآية الثانية عشرة من المقطع الثالث:

"فَنادَى اللهُ آدَمَ، وَقالَ لَهُ مُقَرِّرًا: أَيْنَ أَنْتَ؟ قالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الجَنَّةِ، وَاتَّقَيْتُ، إِذْ أَنا عُرْيانٌ، فَاخْتَبَأْتُ. قالَ: مَنْ أَخْبَرَكَ أَنَّكَ عُرْيانٌ؟ أَمِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَمَرْتُكَ أَنْ لا تَأْكُلَ مِنْها أَكَلْتَ؟ قالَ آدَمُ: المَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَها مَعِي، هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ، فَأَكَلْتُ".

وهنا تبدأ المراوغة... إذ لا يعترف آدم بخطيئته، ويُحمّل المرأةَ مسؤولية ما قام به. وتلقي المرأة بدورها اللوم على الحيّة. فلا يعترف أيٌّ منهما بذنبه قائلًا ببساطة: "أنا أخطأت". فكانت النتيجة أن عوقِب الاثنان وطُردا من جنة عدن، بعد أن أنكرا مسؤوليتهما الشخصية، وقالا، بشكلٍ غير مباشر، "لم نكن نحن المخطئين".

أما القصة الثانية، فهي أكثر مأساوية، إذ تدور أحداثها حول أول نزاعٍ بين الإخوة وَرَدَ في التوراة ،والذي أفضى إلى أول جريمةِ قتلٍ فيها أيضًا. وضمن أحداث القصّة، يَرِدُ في سِفرِ التكوين ابتداءً من الآية الثامنة وانتهاءً بالآية العاشرة من المقطع الرابع:

"ثُمَّ قالَ قاينُ لِهِبْلَ أَخيهِ، فَلَمّا كانا في الصَّحراءِ، قامَ قاينُ إِلى هابيلَ أَخيهِ فَقَتَلَهُ. فقالَ اللهُ لَهُ مُقَرِّرًا: أَيْنَ هِبْلُ أَخوكَ؟ قالَ لا أَعْلَمُ، أَحارِسٌ أَخي أَنا؟ قالَ ماذا صَنَعْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخيكَ صارِخٌ إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ."

لم يُنكر قاين مسؤوليته الشخصيّة. فلم يقل: "لم أكن أنا"، أو: "ليست غلطتي"، بل أنكر شيئًا أعمق، وهو المسؤوليّة الأخلاقيّة. فكأنّه يتساءل ضِمنيًا: لماذا ينبغي عليّ أن أهتمّ بمصلحة شخصٍ آخر سواي؟ ولماذا نمتنع عن القيام بما نرغب به طالما نملك القوّة اللازمة؟

في محاورة "الجمهوريّة" لأفلاطون، يدافع غلوكون عن الرأي القائل بأنّ العدالة هي ما يخدم مصلحة الأقوى. وبعبارةٍ أخرى، فإنّ الحقّ، من وجهة نظره، هو في صفّ مَن يمتلك القوّة. وإن كانت الحياة مجرّد صراعٍ داروينيّ من أجل البقاء، وكنّا نحن الطرف الأقوى في هذا الصراع، فلماذا نضع قيودًا على رغباتنا وأفعالنا من أجل الآخرين؟ وإن لم يكن في الطبيعة ما يُلزمنا أخلاقيًا، فأنا إذًا مسؤولٌ عن نفسي فقط، ولا أتحمّل أيّة مسؤوليةٍ أخلاقية تجاه الآخرين .وهذه الكمات تُجسِّد صوت قاين، وموقفه الأنانيّ الذي ظلّ صداه يتردّد عبر العصور، كلّما أنكر الإنسان مسؤوليته تجاه أخيه الإنسان.

ليست هاتان القصّتان مجرّد حكايتَين للتسلية؛ بل هما شهادةٌ عن بداية التاريخ البشريّ الذي ترويه التوارة، تتطرّق إلى الفشل المضاعف في تحمّل المسؤوليّة، على المستوى الشخصي أوّلًا، ثمّ على المستوى الأخلاقي، ولهذا السبب بالذات، نظرت التوراة إلى القيادة على أنّها الطريق لاستعادة المسؤوليّة المفقودة.

في القصّة التوراتيّة التي تروي تفاصيل سنوات الشباب الأولى لنبيّ الله ورسوله موشيه/موسى، يوجد عبارةٌ تثير الكثير من الاهتمام. فبعد أن يكبر موشيه، يخرج من قصر الفرعون ليطّلع على أحوال شعبه، بني يسرائيل، فيراهم يُستعبَدون في أعمال السُّخرة، ثمّ يشهد حادثةً هناك، حيث يضرب أحدُ جنود فرعون رجلًا من بني يسرائيل .فيقول النصّ الأصليّ باللغة العبريّة: "ڤايار كِي أَيْن إيش"، أي "ورأى أنّه لا يوجد إنسان"، كما ورد في الآية الثانية عشرة من المقطع الثاني من سفر الخروج. لكنّ القراءة الحرفيّة لا تصحّ هنا، فموقع العمل، حيث يُجبَر بني يسرائيل على أعمال السخرة، لا يمكن أن يكون خاليًا من الناس، ونعلم بعد آيتَين فقط أنّ هناك أشخاصٌ من بني يسرائيل شاهدوا ما فعله موشيه. لذلك، من المرجح أكثر أن العبارة تعني أن موشيه نظر يمينًا ويسارًا، ولم يرَ أنّ هناك أحدًا غيره مستعدٌ للتدخّل.

وإنْ صحّ هذا التفسير، فإنّ هذه الحادثة هي أوّل حالةٍ في التاريخ تُجسِّد ما بات يُعرَف لاحقًا بـ"متلازمة جينوفيز" أو "تأثير المتفرّج"، [1]وهو مصطلحٌ تمّ ابتكاره بعد حادثةٍ وقعت في مدينة نيويورك، حيثُ تعرّضت امرأة تُدعى كيتي جينوفيز للاغتصاب والقتل، وسط حشدٍ من الناس كانوا يدركون أنّها تتعرّض أمامهم للاعتداء ،دون أن يتدخّل أيُّ أحدٍ منهم لإنقاذها.

1. Martin Gansberg, “Thirty-Eight Who Saw Murder Didn’t Call the Police,” *New York Times,* March 27, 1964.

وقد أجرى علماء الاجتماع العديد من التجارب لمحاولة فهم ما يحدث في مواقف مشابهة. ويعتقد بعض العلماء أنّ وجود متفرّجين آخرين في المكان يؤثّر على طريقة تفسيرنا لِما يجري؛ فبما أنّ أحدًا لا يتدخّل، يستنتج كلّ فردٍ منّا أنّ الموقف ليس طارئًا. في المقابل، يعتقد قسمٌ آخر من العلماء أنّ العامل الرئيسي في هذه المواقف هو ما يُعرف بـ"تشتت المسؤولية ،"إذ يفترض كلُّ متفرّجٍ أن وجود أشخاص آخرين يشهدون ما يحدث يضمن أن يتكفّل أحدٌ آخر غيره بالتدخّل بدلًا منه. ويبدو لي أن هذا هو التفسير الصّحيح لما حدث في قصّة نبيّ الله ورسوله موشيه، حيث لم يتدخّل أحد لإنقاذ الرجل الذي كان يتعرّض للضرب. وكان ذلك متوقّعًا: إذ إنّ المصريين هم السادة المُستعبِدون، فلماذا يُخاطر أحد المصريين من أجل إنقاذ عبدٍ من بني يسرائيل؟ أما بني يسرائيل أنفسهم، فقد كانوا مُستَعبَدين، فلماذا يُعرّض أحدهم حياته للخطر من أجل التدخّل؟

لقد تطلّب الأمر رجلًا مثل موشيه لكي يتحرّك، وهذا بالضبط ما يصنع القائد، فالقائد الحقيقيّ هو من يتحمَّلُ المسؤوليّة. إذ تُولَد القيادة داخلنا حين نختار أن نكون فاعلين لا متفرّجين سلبيين، وحين لا ننتظر شخصًا غيرنا كي يُبادر، فربما لا يوجد أحد آخر يمكنه التدخّل في هذا المكان وهذه اللحظة بالذات إلّا نحن. فحين تحدث أمورٌ سيّئة، هناك مَن يُشيح ببصره بعيدًا، وهناك مَن ينتظر أن يتحرّك الآخرون، وهناك مَن يُلقي باللوم على الجميع، وهناك مَن لا يفعل شيئًا سوى الشكوى. لكن ثمّة أشخاص يقولون: "إن كان ثمّة خطبٌ ما، فلأكن أنا من بين أوائل المسرعين لإصلاحه **."**أولئك هم القادة؛ وهم الذين يصنعون فرقًا خلال فترة حياتهم، جاعلين العالَم مكانًا أفضل للجميع.

تقوم العديد من الأديان والحضارات العظيمة على مبدأ تقبّل المصير، بمعنى: إنْ كان هناك عنفٌ، أو ظلم، أو فقر، أو ألم، فذلك هو حال الدنيا، أو مشيئة الله، أو طبيعة الأشياء، وكلُّ شيءٍ سيكون على ما يُرام في العالَم الآخَر. لكنّ الديانة اليهوديّة لم تكن يومًا كذلك، ولا تزال إلى اليوم ديانة الاحتجاج الأخلاقيّ. فأبطال الإيمان في التوراة لم يتقبّلوا الواقع كما هو، بل احتجّوا عليه، وبلغوا درجةً من الالتزام الأخلاقي كانوا مستعدين فيها أن يواجهوا الله عزّ وجلّ نفسه. وفي هذا الصدد قال أفرهام/إبراهيم مخاطبًا الله عزّ وجل": أَحاكِمَ جَميعِ العالَمِ، لا يَعمَلْ بِالحُكمِ؟" كما ورد في الآية الخامسة والعشرين من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين. وقال نبيّ الله ورسوله موشيه: "لِمَ أَبْلَيْتَ هَـٰؤُلاءِ القَوْمِ، وَلِمَاذَا بَعَثْتَ بِي؟" كما ورد في الآية الثانية والعشرين من المقطع الخامس من سفر الخروج. وقال النبيّ يرمياهو/إرمياء: "لِمَاذَا تَنْجَحُ طَرِيقُ الأَشْرَارِ؟" كما ورد في الآية الأولى من المقطع الثاني عشر من سفر إرمياء. وهذا تحديدًا ما يريده الله عزّ وجلّ منّا، إذ إنّ الديانة اليهوديّة هي دعوةٌ من الله عزّ وجلّ إلى الإنسان ليتحمّل المسؤوليّة التي أوكلها إليه، لأنّ أعلى درجةٍ يُمكن أن يَبلغها الإنسان هي أن يُصبِح شريكًا لله عزّ وجلّ في مواصلة الخلق وإصلاح العالَم.

حين أخطأ آدم وحَفاه، نادى الله عزّ وجلّ آدم قائلًا له: "أين أنت؟" وقد أشار الحاخام شنيؤور زلمان من لِيادي[2]، وهو أحد مؤسسي الحركة الحَبادية الحسيديّة اليهودية، إلى أنّ هذا النداء لم يكن موجّهًا لآدم وحده، بل هو نداءٌ يتردّد صداه في كلّ جيل، ويتوجّه الله به إلى كلّ إنسان. لقد منحنا الله

الحرّية، لكنّ الحرّية لا تنفصل عن المسؤوليّة. ويُعلّمنا الله ما ينبغي علينا فعله، لكنّه لا يفعل ذلك نيابةً عنّا. ففي الغالب، لا يتدخّل الله في مجرى التاريخ، إلا في حالات نادرة واستثنائية. إنّه لا يُجري أفعالَه علينا ،بل يعملُ من خلالنا. فنحن ظلُّه في هذا العالم وبمثابة وكلاءٍ له. وإنّ صوتَ الله لا يزال يُحدّثنا ويُرشدنا، كما فعل مع قاين قبل أن يرتكب جريمة القتل، حيث يقول صوته لنا: بوسعكم أن تُقاوِموا الشرّ الكامن في داخلكم، وكذلك الشرّ المحيط بكم.

2. Noted in Nissan Mindel, *Rabbi Schneur Zalman of Liadi, A Biography* (New York: Kehot Publication Society, 1969).

إنّ الحياة القائمة على تحمّل المسؤوليّة هي حياةٌ تستجيب لما حولها وتحرّكها الأفعال. وإذا تأملنا كلمة "أَحْرايُوت" العبريّة التي تعني "المسؤوليّة"، نجد أنّها مُشتقّة من كلمة "أَحير"، أي "الآخَر" ،وإنّ "الآخر" الأعظم في حياتنا هو الله عزّ وجلّ، الذي يدعونا إلى استخدام الحرّية التي منحنا إياها لنُقرّب هذا العالَم من الصورة التي ينبغي أن يكون عليها. وهنا يكمن السؤال الأهمّ، وهو سؤالٌ تجيبُ عليه الحياة التي نختار أن نعيشها: إلى أيّ صوتٍ سنُصغي؟ هل سنُصغي إلى صوت الرغبة، كما حدث مع آدم وحَفّاه؟ أم سنُصغي إلى صوت الغضب، كما فعل قاين؟ أم سنستمع فقط إلى صوت الله عزّ وجلّ، مناديًا إيانا كي نجعل هذا العالَم مكانًا أكثر عدلًا ورحمة؟

Arabic Translation by *The Connecting Hamza NGO*
Sponsored by *The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism, Bar Ilan University and the generous donation of Mr. Myron Joshua from Kfar Etzion*